

كاظم جواد العارضي الشاعر الذي قصمت قصائده ظهر الأعداء

الثلاثاء ٢٦ ديسمبر / كانون الأول ٢٠٠٦ - ٢٥:٢١:٢١

د. صدام فهد الأسدي

عام ١٩٢٨ وفي مدينة ذات حضارة مميزة ، بنت الفرات التي تزوع منها رائحة الحب والشعر والكفاح ، مدينة الرجولة والموقف ، صاحبة التاريخ العظيم ، المدينة التي تقول كلمتها مرتين ... في الناصرية ... ولد الشاعر الرومانسي ، الوطني القومي ، كاظم جواد في تلك القرية الحاملة بالحرية ، والمتمردة على الانكليز القابعين بالقوة على قلبها ، وفتح عينيه على لقاء مع إحدى فتياتها قائلا :-

وقفت أمامها خجلا وطرفي حائر شحب

وأفاس مولولة على شفتي تصطب

ونهل منها العزة والكرامة والصراحة والجرأة وطيبة قلبه وكره المحاباة والنفاق ، وهكذا اختطّ درسه الرجولي . وكانت ثانوية الناصرية مرفأه الشعري الذي وقف به شاعراً وخطيباً ، وبعد تخرجه فيها ، أجبرته الظروف على العمل في إحدى دوائرها ولم يستقر ، حتى كان معهد الفنون الجميلة في بغداد بوابته الجديدة التي انطلق منها لعالم الدراسة والفكر والثقافة ، كان هذا عام ١٩٤٩ وانتهى به المطاف طالباً في كلية الحقوق التي تخرج فيها عام ١٩٥٣ .

لقد أحبّ المتنبي شاعرا وفارسا وتأثر بمواقفه الرائدة، وأحبّ التوحيدي كاتبا لا يحابي الأمراء ويعتدّ بنفسه هكذا كان قديمه ، وأما حديثه فقد أحب عمر أبو ريشة شاعرا رومانسيا رمزيا ، وأحب جبران عملاقا في الشعر والنثر ، وبقينا أن الشاعر جاء إلى بغداد وهو يحمل معه موهبة وطموحاً أضاف لهما قراءة متواصلة ونشرا مستمرا في الصحف والمجلات ، زاد على هذا أصدقاؤه الشعراء الرواد الذين كانوا بركانا فجر أمامه الإبداع ، ففي مقر جريدة (الأسبوع) كان الملتقى ، ومن هؤلاء المبدعين ، السياب ، البياتي ، وعلي الحلي ، ومحمد جميل شلش ، وخالد الشواف ، ورشدي العامل ، ولميعه عباس عمارة ، وحسين مردان وعشرات غيرهم .

وهكذا أرحم نفسه بالعمل والفكر والشعر ، وهو يحمل ذلك الثأر الذي لم يفارق عينيه عام ١٩٤١م عندما رأى لأول مرة طائرات الانكليز تقصف الناصرية بوحشية وهمجية ورأى الجثث الممزقة في أحد أزقتها ... فزج نفسه متمردا على العدوان أينما كان ... مشاركاً في هذا المهرجان وذاك التجمع وتلك المجادلة وعند تأميم قناة السويس كان صوته مدوياً ...

يا يسقط العملاء والمستعمرون / يا يسقطون ... يا يسقطون ...

وكبرت عناوينه الكثيرة (معركة الحرية ، أغنية إلى آسيا ، من أغاني الحرية ، تحت ظلال المشنقة ، نشيد الثوار) الذي كان سر خلوده الوطني حين قال :-

اعصفي يا رياح وابريقي يا رعود بعد فجر الكفاح ليلنا لن يعود

وكان حسّه القومي مدوياً (تونس المناضلة ، ثلاث قصائد للجزائر ، على جانبي تل الزعتر) ، وكذلك قصائده الإنسانية (أغنية إلى آسيا ، وداعاً غرناطة) ، وتمخض عن هذا إصدار ديوانه اليتيم (من أغاني الحرية ١٩٦٠م) .

كذلك هّل الشاعر لثورة تموز ١٩٥٨ وكتب لها (أغنية إلى الجمهورية ، أغنية إلى صبيحة ١٤ تموز) قائلا :-

ماذا سأكتب عن شوارعك المضاعة من دماء

ودموع شعبي الكادح المحزون في ليل العراق

ماذا سأكتب يا مدينة

بغداد إني ظامئ لا زلت مشبوب اللهب
مُدِّي إلي بكأس حبك أو بأقداح الغروب
تموز فجر ألف ينبوع على الأفق الخصيب

وبعدها رجع إلى وزارة الثقافة والإعلام موظفاً ، ثم نُسِبَ ملحقاً صحفياً في لندن ، وهناك وجد ضالته في الاطلاع على الفكر الغربي مستزيداً من آثاره ومدى انعكاس أدبه الغربي عليه ، ثم أصبح ملحقاً صحفياً في الهند وتعلّم بعض مفرداتها ، مع معرفته باللغتين الانكليزية والألمانية ، وقد ترجم أعمال لوركا الاسباني (قيثارة غرناطة) وأكثر من نشر المقالات عن اسبانيا ، وهكذا تسلّح الشاعر بثقافة فكرية متعددة مطلعاً على أدب غوركي وناظم حكمت ومايكوفسكي ، وزد على ذلك أدبه الموروث من العصر العباسي وموهبته وقراءته للنقد بأنواعه ومدارسه ، وكل هذا جعله يبدأ مع الشعراء معاركه وكانت نازك الملائكة أول هؤلاء ، ثم البياتي وحتى السياب صاحبه القريب ، ومع الأدباء العرب (صلاح عبدالصبور ، ومحمود العالم) ، وكان محور تلك المعارك الاعتراض على ريادة الشعر الحر ، ثم ذلك التجديد الذي جاء به الرواد مع شكّه بسرقات البياتي من ناظم حكمت وميل نازك الملائكة إلى السوداوية والحزن ، وكان ميدان تلك المعارك على حلبة مجالات الأدب (الأدب ، الأسبوع) ، ومن كل هذه المعارك رجع بخفيّ حنين ، لم تسمعه ولم تتفهّمه الناس بما أراد أن يشخّ به من فكر أصيل وصار لوحده يحمل مصباح ديوجين باحثاً عن إنسان ولم يجده إلا في أم ولده (سلافه حجاوي) قائلاً فيها:-

وكنّت إذا الشعر أوفى عليّ
ظلالاً ودفناً وصباحاً نصير

وحباً وملحمة في فمي

أردّها للنضال الكبير

فلغة الحب أصبحت حلاً وبدأت لغة السياسة والمناضلين تدور على شفة الشاعر :

حين يغدو قلبي المشتعل المذبوح زهره

سوف أهديها إلى أرض الصغار التائهين

لترويه دماء الآخرين

لذا وصفت أسماء المدن في قصائده وأولها وطنه العراق قائلاً :-

أنا في لقاء والشعوب أنا سأرحل للعراق

ثم بغداد دار السلام :-

تبخترت بالعزّ دار الرشيد

واسبانيا :-

في ليالي اسبانيا عبر الجنائن الذاوية

ومريد :-

مريد ايتها المستوحدة الحزينة

وهانوي :-

بالأمس كانت تلتظي هانوي في أفئدة البشر

وهيروشيما :-

في هيروشيما حيث أرغت نطفة الطاعون فانتشر

وكذلك تونس وبيروت وكانت أسماء الأعلام تحتل مساحة أيضاً من قصائده :-

هابيل وقابيل: (هابيل قابيل وكان الغدر والهلاك والحذر)

وجميلة بو حيرد: (سأقول انك يا جميلة قد أعدت رؤى شبابك)

وابن زيدون : (زيدون هل لمعت روحه)

وولادة أيضاً : (وحلم ولادة حيث الشاعر اشرب فانتحر)

وكذلك سقراط ، وحافظ إبراهيم ، وصالح الدين ، وسعد ، وطارق :-

وحبي الربا والربايا ورايات سعد وطارق

وحملت قصائده لغة واضحة وخطابية مباشرة يسودها العنفوان والغضب ، مركزا على الفكر والموضوع ،

حتى ترك الشعر ثلاثة عشر عاما ومال إلى الكتابة الإنسانية سياسيا واجتماعيا وأدبيا ، حتى ظنوا بأنه

اعتزل قول الشعر فأخبرهم قائلا : (سيأتي اليوم الذي انشر فيه شعري) ولم ينشر منه شيء الكثير لأن

المرض كان مفاجئا ، ولم يقل سوى ثلاثة قصائد نشرت في الثورة بعد وفاته ، وقد كان القلب فاصلا بين

الشاعر والشعر وكان السابع من حزيران عام ١٩٨٤م هذا اليوم الذي قاتله كثيراً لأنه يوم نكسة العرب ،

قد مات فيه ، وكانت النجف محطته الأخيرة التي قال قبل دخولها مودعا العراق :-

أيا عراق أيا عراق

لو أن لي في الفجر أجنحة لجئت بك بالعناق

ووصى ولده الوحيد (مصعب) :

لا بأس يا حلمي الوحيد

إني أرى عينيك عالقتين في الأفق البعيد

حتى كانت زوجته المخلصة أول من يرثيه :

فارتحل أن شئت أو شاء الرحيل

هي غصة في القلب باقية

يعذبها الحنين

ولم يكن رثاؤها أصعب من رثاء صديقه الشاعر حميد سعيد الذي بكاه وبكى معه الناصرية موطنه الأصيل

قائلا :

في الطريق إلى قرطبة

تركض الناصرية في الطرق الجبلية

في سحرها الخردلي .

ولقد صدق حارث الراوي عندما رثاه قائلا :-

يا شاعرا النار في شعره تشب لا يدركها الإنطفاء

وهكذا سكنت الجسد الناصري ولم تسكت الروح التي طالما جسدت سلوكا شاعريا أصيلا ونضالا سياسيا

متواصلا وإنسانيا وشاعرا في أن واحد .

لقد رحل الشاعر جسدا ولم يرحل روحا أبدا ، فما زالت جريدة طريق الشعب تحمل نزفاته ، واليقظة تحمل

مواقفه ، وكلية القانون تحتفظ بشهادته وعطاءه ، ومجلة الأسبوع تحمل جرأته وصراحته ومعاركه الدافئة

، واسبانيا تعترف بقدرتها وترجمتها ، ومقهى الزهاوي تتذكر قراءاته ، والراصد والجمهورية تتذكران

قوميته .

ويبقى ثلاثة لا تشفى لهم جراح لرحيله أبدا ، وهم ، زوجته سلافه ، ووولده مصعب وشعلة ...

لمصعب يستام بين الدروس

كتاب الغد المشرق الزاهر

لشعلة حلم الصبايا الملاح

وشدو الضحى العابق الباكر
ويبقى من نرف كثرأ وترك للأجبال ذكراه الخالدة في مؤلفه الرائع ، انه الأديب الألمعي (خالص عزمي)
في كتابه الخالء (كاظم جواء حياته وآثاره) ١٩٨٩ .
وتبقى الناصرية مرتع طفولته وصباه ، أمه الحقيقية التي لا تنساه أبدا ...
تري هل من ناصري يكتب عن هذا الشاعر الرائد العملاق..؟
فإذا كان السياب ميناء البصرة فكاظم جواء قيثاره الناصرية.